المضامين العقدية لخطبة الحاجة

د. عبدالله موسى يعقوب (★)

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ .

أما بعد :

فهذا بحث وجيز حاولت جاهدا فيه بيان ما تضمنته خطبة الحاجة ـ التي غالبا ما يستفتح بها الرسول ﷺ خطبه ـ من مضامين عقدية مهمة عسى الله تعالى أن يجعل فيها دافعا مهما للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى إلى التزامها في خطبهم ودروسهم ومكاتباتهم تأسيا برسول الله ﷺ ، ولما فيها من البركة العظيمة عند التأمل الدقيق فيها ، ومما دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع عدة أسباب منها :

أولا / رأيت إعراض كثير من الدعاة عن هذه الخطبة في استفتاح خطبهم ودروسهم ، إما لجهلهم بمضامينها العقدية المهمة ، أو لتهاونهم بها ، أو لعدم معرفتهم لها ، وهي من جملة السنن التي في طريقها إلى الاندراس كما أخبر

(★) أستاذ مساعد بجامعة الفاشر – كلية التربية قسم الدراسات الإسلامية.

بذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام حيث يقول : (يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا ...) الحديث [1] فأسهمت بهذا الجهد عسى أن يكون فيه تذكير لمن غفل عن هذه الخطبة ، وإحياء لسنة عظيمة من سنن الرسول ﷺ .

ثانيا / هذه الخطبة بوحدها إذا وفق الله تعالى يمكن أن تكون سببا لهداية الناس ، وإخراجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإسلام كما حصل ذلك لضماد الصحابي الجليل ، فإنه لما سمع هذه الخطبة من النبي ﷺ وكان إذ ذاك مشركا فما كان منه إلا أن قال : (هات يدك أبايعك على الإسلام) فقد روى مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ[2] فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ... الخ الخطبة أَمَّا بَعْدُ . قَالَ فَقَالَ أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَالَ فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ[3] الْبَحْرِ قَالَ فَقَالَ هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ قَالَ فَبَايَعَهُ فَقَالَ رَسُولُ

([1]) الحديث رواه ابن ماجة في سننه : كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم برقم 4039 .وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 87 .

([2]) قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم : وَالْمُرَاد بِالرِّيحِ هُنَا الْجُنُون وَمَسّ الْجِنّ ، وَفِي غَيْر رِوَايَة مُسْلِم : يَرْقِي مِنْ الأَرْوَاح أَيْ الْجِنّ سُمُّوا بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لا يُبْصِرهُمْ النَّاس فَهُمْ كَالرُّوحِ وَالرِّيح .

([3]) قال ابن الأثير في النهاية : قال أبو موسى : هكذا وقع في صحيح مسلم ، وفي سائر الروايات (قاموس البحر) ، وهو وسَطُه ولُجَّته ولعله لم يُجَوِّد كِتْبَتَهُ فصَحَّفَه بعضُهم . وليست هذه اللَّفْظة أصلا في مُسْنَد إسحاق (ابن راهُويه كما صرَّح النووي) الذي رَوَى عنه مسلم هذا الحديث غير أنه قَرَنَه بأبي موسى وروايَتِه فلَعلَّها فيها . النهاية في غريب الحديث والأثر 81/5 ، مادة نعس . وقال الإمام النووي في شرحه 6 / 157 : (قال القاضي عياض : أكثر نسخ صحيح مسلم وقع فيها (قاعوس) بالقاف والعين . قال : ووقع عند أبي محمد بن سعيد : (تاعوس) بالتاء المثناة فوق . قال : ورواه بعضهم : (ناعوس) بالنون

اللهِ ﷺ وَعَلَى قَوْمِكَ قَالَ وَعَلَى قَوْمِي قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً فَقَالَ رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ)[1] .

لهذه الأسباب استعنت بالله تعالى في كتابة هذه الأوراق والتي سميتها (**المضامين العقدية لخطبة الحاجة**)[2] ، والتي أسأل الله تعالى أن تكون خالصة لوجهه الكريم ، وأن ينفع بها من قرأها ، وأن يدخر لي أجرها ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وقد استفرغت فيها وسعي ، وسهرت فيها الليالي ذوات العدد . وقد سرت في جمع المادة العلمية لهذا الموضوع على المنوال التالي :

المبحث الأول : أصل الخطبة ونصها .

المبحث الثاني : تضمن الخطبة للشهادتين .

المبحث الثالث : الحمد ودلالاته العقدية .

المبحث الرابع : الاستعانة ودلالاتها العقدية .

المبحث الخامس : الاستغفار ودلالاته العقدية .

المبحث السادس : الاستعاذة ودلالاتها العقدية .

المبحث السابع : والهداية والضلال وعلاقتها بباب الاعتقاد .

وبعد : فهذا جهد المقل واستسمح القارئ الكريم عذرا إذا ما وجد في عملي هذا تقصيرا ، فهذا جهد بشر ، والمرء يستحضر في هذا المقام قول

والعين . قال : وذكره أبو مسعود الدمشقي في أطراف الصحيحين والحميدي في الجمع بين رجال الصحيحين (قاموس) بالقاف والميم .)

(1) رواه مسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة برقم 2045.

(2) ومن خلال مطالعتي المستمرة للشبكة الإلكترونية الإنترنت اطلعت على بحث بعنوان خطبة الحاجة أصلها ومدلولها ، للدكتور / محمد ابن عبد الله القناص ، في سبع ورقات ، ولقد استفدت منها في بعض مواضع هذه الورقات تجده مشارا إليه في موضعه .

القائل : إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يوم إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر)[1] ، وفي الختام : أتوجه بالشكر إلى الله تعالى الذي سهل لي أمر إعداد هذه الرسالة بفضل منه وتوفيق ، وأسأله سبحانه أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه وأن ينفعنا بما علمنا إنه على كل شيء قدير.

المبحث الأول
أصل الخطبة ونصها

وردت هذه الخطبة المباركة عن ستة من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وهم عبد الله بن مسعود ، وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، ونبيط بن شريط ، وعائشة رضي الله عنهم . وعن تابعي واحد هو الزهري - رحمه الله - وقد جمع الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في رسالته خطبة الحاجة الطرق المختلفة لروايات هؤلاء الصحابة - يزيد بعضهم وينقص البعض - والنص الكامل للخطبة كما يلي: : (إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد[2] أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

([1]) هذه العبارة للعماد الأصفهاني ، وقد أوردها طه عبد الرؤوف في مقدمة تحقيقه لكتاب إعلام الموقعين (ص م).

([2]) قال ابن القيم رحمه الله في "تهذيب السنن" (149/6): (والأحاديث كلها متفقة على أنَّ : (نستعينه ونستغفره ونعوذ به) بالنون ، والشهادتان بالإفراد ، (وأشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (لما كانت كلمة الشهادة لا يتحملها أحد عن أحد ، و لاتقبل النيابة بحال ؛ أفرد الشهادة بها ، ولما كانت الاستعانة والاستعاذة والاستغفار تقبل ذلك فيستغفر الرجل لغيره ، ويستعين الله له ، ويستعيذ بالله له ، أتى فيها بلفظ الجمع ، ولهذا يقول : (اللهم أعنا ، وأعذنا ، واغفر لنا)... قال ابن القيم : وفيه معنى آخر ، وهو أنَّ الاستعانة والاستعاذة والاستغفار طلب وإنشاء ، فيستحب للطالب أن يطلبه لنفسه ولإخوانه المؤمنين ، وأمَّا الشهادة فهي إخبار عن شهادته لله بالوحدانية

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾[1]

هذه هي خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه كما يعلمهم التشهد في الصلاة ، وكان النبي ﷺ يفتتح خُطبه بها ، وكان السلف الصالح يقدمونها بين يدي دروسهم ، وكتبهم ، ومختلف شئونهم تأسيا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذه الخطبة يرويها أهل العلم غالبا في كتاب النكاح لتأكيد سنيتها في خطبة النكاح ، ومن أهل العلم من أوجبها كالظاهرية ، ولكن الحاجة تشمل خطبة النكاح وغيرها من الخطب والحاجات ؛ ولذلك من أهل العلم من أورد هذه الخطبة في كتاب الجمعة كالإمام مسلم والنسائي رحمهم الله تعالى ، ولذلك قال السندي في حاشيته على النسائي : (الظَّاهِر عُمُوم الْحَاجَة لِلنِّكَاحِ وَغَيْره فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِي بِهَذَا لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى قَضَائِهَا وَتَمَامهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّافِعِيّ : الْخُطْبَة سُنَّة فِي أَوَّل الْعُقُود كُلّهَا ، مِثْل الْبَيْع وَالنِّكَاح وَغَيْرهمَا ، وَالْحَاجَة إِشَارَة إِلَيْهَا ، وَيَحْتَمِل أَنَّ الْمُرَاد بِالْحَاجَةِ النِّكَاح إِذْ هُوَ الَّذِي تَعَارَفَ فِيهِ الْخُطْبَة دُون سَائِر الْحَاجَات ، وَعَلَى كُلّ تَقْدِير فَوَجْه ذِكْر الْمُصَنِّف الْحَدِيث فِي هَذَا الْبَاب لأَنَّ الأَصْل اِتِّحَاد الْخُطْبَة فَمَا جَازَ أَوْ جَاءَ فِي مَوْضِع جَازَ فِي مَوْضِع آخَر أَيْضًا ...)[2].

ولنبيه بالرسالة ، وهي خبر يطابق عقد القلب وتصديقه ، وهذا إنما يخبر به الإنسان عن نفسه لعلمه بحاله بخلاف إخباره عن غيره ، فإنه إنما يخبر عن قوله ونطقه ، لا عن عقد قلبه. والله أعلم .

([1]) رواها الإمام الترمذي في سننه كتاب النكاح ، باب ما جاء في خطبة النكاح 413/3 ، برقم 1105 ، وابن ماجة في سننه كتاب النكاح ، باب خطبة النكاح 609/1 ، برقم 1892 ، وأصلها في صحيح مسلم كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة ، والخطبة ص347 الحديث رقم 868 . وقد قام الشيخ الألباني رحمه الله تعالى بتخريج هذه الخطبة تخريجا علميا دقيقا فمن أراد الاستزادة فعليه برسالته خطبة الحاجة .

(2) حاشية السندي على النسائي لنور الدين بن عبد الهادي أبو الحسن السندي ، نشر : مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب

الطبعة الثانية ، 1406 – 1986 تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة 105/3.

إن هذه الخطبة على وجازة ألفاظها وقلة كلماتها تضمنت معاني عظيمة ، وكلمات جامعة فيها إظهار العبودية والافتقار إلى الله عز وجل عند التأمل الدقيق فيها ، ولها تأثيرها البالغ على النفوس إيمانا ومحبة ورجاء[1]، وفيما يلي أذكر أهم هذه المضامين العقدية التي تضمنتها هذه الخطبة المباركة :

المبحث الثاني
تضمن الخطبة للشهادتين

لقد تضمنت هذه الخطبة الشهادتين اللتين هما أول شعار الإسلام ، وأساسه ، وركنه الأول ، ولا يكون الإنسان مسلما إلا بالتلفظ بهما واعتقاد مضمونهما والعمل ظاهرا وباطنا بمقتضاها ، وذلك لأنه ما من بناء إلا وله أصل وأساس يقوم عليه ، وإن أساس بناء دين الإسلام يقوم على أصلين هما :

1- عبادة الله وحده لا شريك له .

2- الإيمان برسوله ﷺ .

وهذا حقيقة قول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فمن خرج عن واحد منهما فلا عمل له ولا دين .

ومن أجل ذلك فإن من المتعين على كل مسلم أن يعرف ما يدل عليه كل واحد من هذين الأصلين وما تشتمل عليه من أمور وأحكام ، معرفة تخرجه من حد الجهل على أقل الدرجات ، وأن يلتزم بذلك اعتقادا وقولا وعملا لينال بذلك الفوز والسعادة في الحياة الدنيا وبعد الممات . ولعلي أقف هنا بشيء من الاختصار على معاني هذه الشهادة وفضلها :

أما شهادة أن لا إله إلا الله فمعناها الحق الذي لا ينبغي العدول عنه هو : أن لا معبود بحق إلا الله . فتضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيا وإثباتا، فـ"لا إله" نفت الإلهية عن كل ما سوى الله. و "إلا الله" أثبتت الإلهية لله وحده ، فنفت جميع ما يعبد من دون الله، وأثبتت العبادة لله وحده لا شريك له، والعبادة إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع.

ولا يجوز لنا أن نقول : إن معناها لا خالق إلا الله ، أو لا قادر على الاختراع إلا الله ، أو لا موجود إلا الله، كما هو قول طائفة من أهل الكلام ؛

([1]) وقد تقدم في التقديم ذكر قصة ضماد رضي الله عنه .

وذلك لأمور منها :

1/ أن كلمة إله عند العرب فِعالٌ بمعنى مفعول ، كغِراس بمعنى مغروس ، وفِراش بمعنى مفروش ، وكتاب بمعنى مكتوب ؛ فإله : فِعال بمعنى مفعول : أي مألوه ، والتأله في لغة العرب معناه التنسك والتعبد ، فمعنى مألوه : معبود .

ومنه قول رؤبة بن العجاج[1] :

لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهي [2]

وقد سمَّت العرب الشمس لما عبدوها إلهةً ، قالت مية بنت عتيبة ترثي أباها :

تروَّحنا من اللعباء عصراً فأعجلنا الإلهة أن تؤوبا [3]

قال الراغب الأصفهاني[4] رحمه الله تعالى : (وأله فلان يأله الآلهة عبد ، وقيل تأله ؛ فالإله على هذا هو المعبود ... وإله حقه أن لا يجمع إذ لا معبود سواه لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه فقالوا الآلهة قال تعالى: (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) وقال: (ويذرك وآلهتك) وقرئ (وإلاهتك)[5] أي : عبادتك) [6].

2_أن كفار قريش والمشركين في الجاهلية لا ينكرون أنه لا خالق إلا الله

([1]) رؤبة بن العجاج بن رؤبة التميمي السعدي أبو الجحاف أو أبو محمد ، راجز من الفصحاء المشهورين ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان أكثر مقامه في البصرة ، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة ، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة ، مات في البادية وقد أسن سنة 145هـ ، لما مات رؤبة قال الخليل : دفنا الشعر واللغة والفصاحة ، انظر ترجمته في : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان تحقيق : إحسان عباس ، الناشر : دار صادر ـ بيروت ، 303/2 .

([2]) انظر : لسان العرب 13/ 496.

([3]) المرجع نفسه 469/13 .

([4]) هو الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، الملقب بالراغب ، صاحب التصانيف النافعة ، والتي من أجلها : مفردات ألفاظ القرآن .قال الذهبي : لم أظفر له بوفاة ، ولا ترجمة . انظر سير أعلام النبلاء 18/ 120 للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، طبع ونشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ . ط8/ 1412 ه .1992 م .

([5]) وبها قرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، والضحاك ، وهي قراءة شاذة ، انظر : الجامع لأحكام القرآن 262/7 . والقراءة الشاذة تحمل على المعنى كما هو مقرر في كتب أصول الفقه .

([6]) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص 82 - 83 .

، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، قال تعالى في شأنهم :﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [1]

وأشعارهم مليئة بالإقرار بهذا الأمر ، أعني توحيد الربوبية ، ومن ذلك قول زهير ابن أبي سلمى[2] :

فلا تكتُمُن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
يُؤخر فيُوضَعْ في كتاب فيُدَّخَر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم [3]

ومنه قول حاتم الطائي [4]:

أما والذي لا يعلم السر غيره ويحيي العظام البيض وهي رميم [5]

3/ أن كفار قريش لما قال لهم الرسول ﷺ قولوا : (لا إله إلا الله) ، قالوا كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [6]،

فما الذي فهمه كفار قريش عندما أمرهم النبي ﷺ أن يقولوا لا إله إلا الله ؟ هل فهموا من لا إله إلا الله أن معناها لا خالق أو لا قادر على الاختراع إلا الله؟.

الجواب لا ؛ لأنهم لا ينكرون ذلك ، إنما أنكروا أن تكون العبادة كلها لله

([1]) (لقمان الآية : 25).

([2]) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني ، من مُضَر . حكيم الشعراء في الجاهلية وفي أئمة الأدب من يفضّله على شعراء العرب كافة

قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره : كان أبوه شاعراً ، وخاله شاعراً ، وأخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وأخته الخنساء شاعرة . ولد في بلاد مُزَينة بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد)، واستمر بنوه فيه بعد الإسلام.

قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمّى (الحوليات)، أشهر شعره معلقته التي مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ..... ، ويقال : إن أبياته في آخرها تشبه كلام الأنبياء .

([3]) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص25.

([4]) حاتم الطائي : حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني ، أبو عدي . شاعر جاهلي ، فارس جواد يضرب المثل بجوده . كان من أهل نجد ، وزار الشام فتزوج من ماوية بنت حجر الغسانية ، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيء) عام 46 قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام . وابنه عدي صحابي جليل

([5]) شرح ديوان حاتم الطائي ص25 .

([6]) سورة ص الآية : 5 .

وحده لا شريك له ، إذاً فمعنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله ، وثُقَدَّر كلمة حق لأن المعبودات كثيرة ، ولكن المعبود الحق هو الله وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾[1] ،

إذا علم هذا فمعنى هذه الشهادة إذاً : الاعتقاد والإقرار بأنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له والتزام ذلك قولا وعملا . ولا يكفي مجرد التلفظ بهذه الكلمة دون معرفة المعنى والتزام المقتضى .

معنى شهادة أن محمداً رسول الله :

لما كانت كلمة الشهادة علماً على النطق بالشهادتين معاً ، وكانتا متلازمتين لا تنفك إحداهما عن الأخرى ، كان من الواجب على من أتى بأحدهما أن يتعرف على ما تدل عليه الأخرى ، فبعد أن عرفت أن ليس المراد من لا إله إلا الله مجرد التلفظ بها ، فكذلك يقال في قرينتها ، بل لابد من التصديق بها والالتزام بمعناها ومقتضاها ، وهو : الاعتقاد الجازم بأنه ﷺ مرسل من ربه عز وجل ، قد حمله الله هذه الشريعة كرسالة ، وكلفه بتبليغها إلى الأمة ، وفرض على جميع الأمة تقبل رسالته والسير على نهجه .

ومقتضى ذلك : طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ، وترك البدع والمحدثات ،وتقديم قوله على قول كل أحد .

المبحث الثالث
إثبات الحمد لله تعالى

ومما تضمنته هذه الخطبة ؛ إثبات الحمد لله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، والاعتراف بأنه يستحق الحمد وحده لا شريك له ، والتعبد لله تعالى بالحمد والثناء عليه ، وأما معنى الحمد فقد قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل ، والألف واللام لاستغراق الجنس

---

[1] سورة الحج الآية : 62 .

من المحامد ، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر :

وأبلج محمود الثناء خصصته بأفضل أقوالي وأفضل أحمدي

فالحمد نقيض الذم ، تقول : حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود ، والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، والمحمد : الذي كثرت خصاله المحمودة [1]. وبذلك سمي رسول الله ﷺ ، وقال الشاعر[2] :

فشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

والمحمدة : خلاف المذمة ، وأحمد الرجل : صار أمره إلى الحمد ، وأحمدته : وجدته محمودا ، تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته ، أي صادفته محمودا موافقا ، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه ، ورجل حمدة - مثل همزة - يكثر حمد الأشياء ، ويقول فيها أكثر مما فيها ، وحمدة النار - بالتحريك - : صوت التهابها)[3] ، ومن نفائس الكلم ما قاله العلامة الشنقيطي - رحمه الله تعالى - في الأضواء عند تفسير سورة الفاتحة قال : قوله (الحمد لله) لم يذكر لحمده هنا ظرفاً مكانياً ولا زمانياً . وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية :

---

(1) ومن بديع ما يذكر هنا هو ما قاله أهل العلم في الفرق بين محمد وأحمد من وجهين :
الوجه الأول : أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد فهو دال على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه ، وأحمد تفضيل من الحمد يدل على أنه الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره ، فمحمد زيادة حمد في الكمية ، وأحمد زيادة في الكيفية ، فيُحمد - ﷺ - أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر.
والوجه الثاني : أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره ، فدلَّ أحد الاسمين وهو محمد على كونه محموداً ، ودل الاسم الثاني وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه .

(2) وهو حسان بن ثابت رضي الله عنه

(3) الجامع لأحكام القرآن 1/ 175 .

السماوات والأرض في قوله : { وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض } [1]، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية : الدنيا والآخرة في قوله : { وَهُوَ الله لا إله إلاَّ هُوَ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة } [2] ، وقال في أول سورة سبأ { وَلَهُ الحمد فِي الآخرة وَهُوَ الحكيم الخبير} سورة سبأ الآية : 1 .أهـ) [3]. فالحمد لله تعالى في كل زمان ومكان .

الفرق بين الحمد والشكر :

قال ابن القيم رحمه الله [4]: (والفرق بينهما : أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته و الحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب ، ومعنى هذا : أن الشكر يكون : بالقلب خضوعا واستكانة وباللسان ثناء واعترافا وبالجوارح طاعة وانقيادا ومتعلقه : النعم دون الأوصاف الذاتية فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله والشكر يكون على الإحسان والنعم فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان)[5] .

ويقارب كلام ابن القيم ما ذكره القرطبي في تفسيره بعد أن ذكر كلام أهل العلم في الفرق بين الحمد والشكر قال : (قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على

([1]) [الروم : الآية 18]

([2]) سورة القصص الآية : 70 .

([3]) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي 1/1 .

([4]) هو الإمام العلامة المحقق الحافظ الأصولي الفقيه النحوي . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي المشهور ب:ابن القيم . صاحب التصانيف الكثيرة والنافعة ولد في بيت علم وفضل سنة 691 هـ وتوفى سنة 751هـ من مصنفاته : زاد المعاد في هدى خير العباد ، ومدارج السالكين ، وغيرها . انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير 252/7 ، والدرر الكامنة لابن حجر ، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 447/2.

(5) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثانية، 1393 - 1973
تحقيق : محمد حامد الفقي ، 246/2 .

الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان ، وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر)[1] .

وللعلامة أبي السعادات ابن الأثير[2] كلاما ماتعا في الموضوع قال : والحمد والشكر مُتَقاربان . والحمد أعَمُّها لأنَّك تحمَد الإنسان على صِفاته الذَّاتيَّة وعلى عطائه ولا تَشْكُره على صِفاته ، ومنه الحديث (الحمدُ رأس الشُّكر ما شَكَر اللهَ عبْدٌ لا يَحْمَده) كما أنّ كلمة الإخْلاص رأسُ الإيمان . وإنما كان رأسَ الشُّكر ؛ لأنّ فيه إظهار النِّعْمة والإشادة بها ولأنه أعم منه فهو شُكْر وزيادة)[3].

فضل الحمد : لقد ورد في فضل الحمد أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ منها :

1/ روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ) [4] .

2/ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأَنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)[5] .

3/ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبُّ الكَلاَمِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ وَلاَ تُسَمِّيَنَّ

([1]) الجامع لأحكام القرآن 134/1 .

(2) هو العلامة مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ثم الموصلي ، الكاتب ابن الأثير صاحب كتاب جامع الأصول ، وغريب الحديث ، وغير ذلك ، عاش ثلاثا وستين سنة . توفي في سنة 606ه بالموصل .

([3]) النهاية في غريب الحديث والأثر ، مادة حمد .

([4]) متفق عليه ؛ البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ونضع الموازين القسط برقم 7563 ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح برقم 2694 .

([5]) رواه مسلم في كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء برقم 328 .

غُلاَمَكَ يَسَارًا وَلاَ رَبَاحًا وَلاَ نَجِيحًا وَلاَ أَفْلَحَ فَإِنَّكَ تَقُولُ أَثَمَّ هُوَ فَلاَ يَكُونُ فَيَقُولُ لاَ إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ فَلاَ تَزِيدُنَّ عَلَيَّ) [1] . إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة في فضل الحمد .

دلالة الحمد على الاعتقاد :

وأما دلالة الحمد على الاعتقاد ؛ فإن الحمد يدل على الاعتقاد والتوحيد دلالة تضمن ؛ لأن الحمد لا يأتي إلا بعد الاعتراف للمحمود بجميل الخصال ولهذا ـ والله أعلم ـ اختلف أهل العلم كما يقول الإمام القرطبي رحمه الله : اختلف العلماء أيما أفضل ، قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ، ففي قوله : (الحمد لله) توحيد وحمد ، وفي قوله : لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ، لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ، قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) . واختار هذا القول ابن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبي ﷺ : (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...) [2] . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلا ووصفا واسما ، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلا ووصفا واسما، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه ، منزه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه ، فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك ، وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت وجلال ، وأسماؤه كلها حسنى

([1]) رواه مسلم في كتاب الأدب ، باب كراهية الأسماء القبيحة برقم 2137 .

([2]) الجامع لأحكام القرآن 175/1 .

، وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة والسموات والأرض وما بينهما ، وما فيهما ، فالكون كله ناطق بحمده ، والخلق والأمر صادر عن حمده ، وقائم بحمده ، ووجد بحمده ، فحمده هو سبب وجود كل موجود ، وهو غاية كل موجود ، وكل موجود شاهد بحمده ...)[1].

المبحث الرابع
الاستعانة بالله ودلالاتها العقدية

ومما تضمنته هذه الخطبة المباركة طلب الاستعانة من الله تعالى ، وهذا باب عظيم من أبواب العقيدة والتوحيد ، والاستعانة هي : الثقة بالله والاعتماد عليه ، والعبد محتاج للاستعانة بالله على مصالح دينه ودنياه ، فهو محتاجٌ إليها في فعل المأمورات وترك المحظورات ، وفي الصبر على المقدورات ، كما قال يعقوب عليه السلام : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) [2] ،

قال الحافظ ابن رجب[3] – رحمه الله – عند شرح قوله ﷺ: (وإذا استعنت فاستعن بالله) قال : (الاستعانة بالله وحده منتزع من قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ، وهي كلمة عظيمة جامعة يقال : إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها ، وفي استعانة الله وحده فائدتان : إحداهما : أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات ، والثانية : أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل ، فمن أعانه الله فهو المعان ،

---

(1) بدائع التفسير 112/1 .

(2) سورة يوسف الآية : 18 .

(3) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب ، الإمام العلامة الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة والمفيدة والتي من أشهرها جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، وشرح الترمذي (مفقود) وغيرها كثير ولد سنة 736 هـ ، وتوفي سنة 795 هـ . انظر ترجمته في : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر 321/2 ، وشذرات الذهب 339/6 .

ومن خذله الله فهو المخذول ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن)[1] ، وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول : (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) ، وكان من دعائه ﷺ (يا رب أعني ولا تعن علي) [2])[3].

أقسام الناس في عبادة الله والاستعانة به :

لقد قسم العلامة المقريزي[4] رحمه الله تعالى في كتابه القيم تجريد التوحيد المفيد الناس في عبادتهم لله تعالى واستعانتهم به إلى أربعة أقسام غاية في الدقة والروعة أجدني مضطرا إلى نقل كلامه مع طوله مع شيء من الحذف والاختصار حيث قال : (واعلم أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به أقسام : أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم ، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم ، ولهذا كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل فقال (يا معاذ ، والله إني أحبك فلا تدع أن تقول في كل دبر صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[5] فأنفع الدعاء ؛ طلب العون على مرضاته تعالى.

ويقابل هؤلاء القسم الثاني :

المعرضون عن عبادته والاستعانة به ، فلا عبادة لهم ولا استعانة ، بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به ؛ فعلى حظوظه وشهواته والله سبحانه

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب القدر ، بَاب فِي الأمْر بالقُوَّةِ وَتَرْكِ العَجْز وَالاسْتِعَانَةِ بالله وَتَفْويض المَقَادِير لله برقم 4816 .

(2) أخرجه أبو داود في تفريع صلاة السفر ، بَاب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إذَا سَلَّمَ برقم 1291 .

(3) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي .

(4) هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ..بن تميم المقريزي ، تقي الدين أبو العباس وقيل أبو محمد ، أحد المشاهير الأعلام بعلبكي الأصل مصري المولد والوفاة ، الحنفي ثم الشافعي ولد سنة 766 هـ ، وتوفي سنة 845 هـ ، صاحب التصانيف الكثيرة والتي من أشهرها : الخطط ، وتجريد التوحيد المفيد ...قال فيه الحافظ ابن حجر : كان إماما بارعا مفننا متقنا ضابطا دينا خيرا محبا لأهل السنة ، يميل إلى الحديث والعمل به حتى نسب إلى الظاهر حسن الصحبة حلو المحاضرة) . انظر ترجمته في : إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر 172/9 ، والضوء اللامع للسخاوي 23/2 ، والبدر الطالع للشوكاني 79/1 .

(5) أخرجه الإمام أحمد 244/5 ، وأبو داود في السنن في باب الاستغفار برقم 1301 .

وتعالى يسأله من في السماوات والأرض ، ويسأله أولياؤه وأعداؤه فيمد هؤلاء وهؤلاء ، وأبغض خلقه إليه إبليس ، ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عوناً على مرضاته كانت زيادة في شقوته وبعده . وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عوناً له على طاعته ؛ كان سؤاله مبعداً له عن الله فليتدبر العاقل هذا وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه ، ويكون منعه حماية له وصيانة ، والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيرة .

القسم الثالث

من له نوع عبادة بلا استعانة ... وهؤلاء نوعان : **أحدهما** أهل القدر القائلون : بأنه سبحانه وتعالى قد فعل بالعبد جميع مقدروه من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدروه إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق ، وإرسال الرسول وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسألها إياها . وهؤلاء مخذولون موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده [1]. **النوع الثاني :** من لهم عبادة وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وأنها بدون المقدور كالموات الذي لا تأثير له بل كالعدم الذي لا وجود له وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول ، فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبب ومن الآلة إلى الفاعل فقل نصيبهم من الاستعانة . وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب استعانتهم وتوكلهم ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله .

([1]) هذا الأثر أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ص 123 ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 623/4 ، وفي إسناده مقال . ضعفه الألباني في تخريجه لأحاديث شرح الطحاوية ص 305 .

القسم الرابع :

من له استعانة بلا عبادة وتلك حالة من شهد تفرد الله بالضر والنفع ولم يدر بما يحبه ويرضاه فتوكّل عليه في حظوظه فأسعفه بها سواء كانت أموالاً أو رياسات أو جاهاً عند الخلق أو نحو ذلك ، وهذا لا عاقبة له ، فذلك حظه من دنياه وآخرته)[1] .

المبحث الخامس
الاستغفار ودلالاته العقدية

ومما تضمنته هذه الخطبة المباركة :

طلب الاستغفار من الله تعالى ، والاستغفار والمغفرة أصلها الغفر : أي التغطية والستر ، وغفر الله له ذنوبه أي سترها)[2] ، فالاستغفار من الذنوب هو طلب المغفرة ، والعبد أحوج ما يكون إليه لأنه يخطئ بالليل والنهار ، وقد تكرر في القرآن ذكر التوبة والاستغفار، والأمر بهما ، والحث عليهما في القرآن والسنة ، أما الكتاب فقد قال تعالى :﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾[3] ، وقال تعالى :﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[4] .

والله سبحانه وتعالى سمى نفسه بالغفور في إحدى وتسعين آية ، وسمى نفسه بالغفار في خمس آيات ، وكلاهما من أبنية المبالغة ، قال تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ، وقال تعالى :﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ وقوله تعالى :﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

---

(1) تجريد التوحيد المفيد من ص 83 إلى 88 ، ثم تبين لي أن هذا النص مطابق لما في مدارج السالكين لابن القيم 1/99-105 ، مع بعض الإضافات اليسيرة والتصرف القليل .
(2) انظر : مدارج السالكين لابن القيم 1/314 .
(3) سورة محمد الآية : 19 .
(4) سورة المزمل الآية : 20 .

وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [1]، وأما الغافر فقد ورد مرة واحدة في القرآن، وذلك في قوله تعالى : (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) ، فالله – سبحانه وتعالى – هو الغفور والغفار والغافر الذي يغفر الذنوب جميعاً ويسترها ، وفي هذا حث لعباده أن يطلبوا منه المغفرة وستر الذنوب والتجاوز عن السيئات .

وأما سنة النبي عليه الصلاة والسلام فهي أيضا زاخرة بالأمر بالاستغفار والإكثار منه من ذلك :

عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ فِي كُلّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ...) [2].

من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) [3]، وأخرج مسلم من حديث الأَغَرَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ) [4]، وأخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر قال: (إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ مِائَةَ مَرَّةٍ)[5] .

فضل الاستغفار :

لقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تدل على فضل الاستغفار ، وفضل ملازمته ولعلي أذكر بعضا منها هنا :

قال الله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم

([1]) سورة نوح الآية 10.

([2]) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم 17577 .

([3]) وأخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، بَاب اسْتِغْفَار النَّبِيّ ﷺ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ برقم 5832 .

([4]) رواه مسلم في : كِتَاب الذِّكْر وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَار ، بَاب اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَار وَالِاسْتِكْثَار مِنْهُ برقم 4871 .

([5]) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم 4496 .

يعلمون)[1] . عن أسماء بن الحكم الفزاري قال سمعت عليا يقول إني كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني به وإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ثم قرأ هذه الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)[2].

وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [3] .

دلالة الاستغفار على العقيدة والتوحيد :

للاستغفار آثارٌ عقديَّةٌ وثمارٌ إيمانيةٌ جليلةٌ[4] : منها :

1/ **في الاستغفار إنابة العبدِ إلى ربّهِ ، واعترافه بذنبه وإقراره** بـ (أن له ربّاً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب) ؛ ولذلك ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه **قالَ :** سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ

([1]) سورة آل عمران الآية : 135 .
([2]) أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن حبان.
([3]) سورة آل عمران الآية (15،16،17)
([4]) انظر لزوما : الاستغفار : ثماره العقدية وآثاره النفسية والاجتماعية د. محمد عمر دولة بحث منشور على موقع شبكة المشكاة الإسلامية . وهو بحث قيم جدير بالقراءة ومثلي يتقاصر أن يقول فيه شيئا ، وقد استفدت منه في هذا المبحث .

أَصَابَ ذَنْبًا قَالَ قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ)[1].

2/ في **الاستغفار تربية الخشوع والخضوع في نفس المسلم ، وتلذُّذِه بالتذلُّل بين يدي ربّه**

سبحانه وتعالى كما قال تعالى حكاية عن نبي الله صالح عليه السلام : (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)[2] .

3/ **الاستغفار يتضمن شهادةَ العبدِ برحمةِ ربِّهِ وتوبته على عباده ؛ واستحضاره قربَه وإجابتَه من دعاه ، ورحمتَه ومحبَّتَه عِبادَه** ، كما قالَ نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام : (وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)[3] .

ولعلَّ المتأمِّلَ في حديثِ سيّدِ الاستغفار يُدرك هذه الصلة الوثيقة ما بين الأدعية والأذكار ، وبين الأصول العقديَّة والمعاني الإيمانيَّة ؛ **وهذا سِرُّ الوعدِ بالجنّة لكلماتٍ يقولُها العبدُ يسيرةٍ في حروفِها ومبانيها ، كبيرةٍ في رُوحها ومعانيها** ، فقد روى البخاري رحمه الله في كتاب (الدعوات) باب (أفضل الاستغفار) حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (سيّدُ الاستغفار أن تقول: اللهمَّ أنت ربّي لا إله إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك ، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ ؛ أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ ، أبوء لك بنعمتِك عليَّ ، وأبوء بذنبي ؛ فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت . قال : ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسي ؛ فهو من أهل الجنّة، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يُصبح ؛ فهو من أهل الجنة)[4].

4/ **الاستغفارُ يشتملُ على إظهار الرجاءِ في الله عز وجلَّ وحُسن الظنّ به**

([1]) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، بَاب قَوْل الله تَعَالَى : { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ الله } برقم 6953 .
([2]) سورة هود الآية : 61 .
([3]) سورة هود الآية : 90.
([4]) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب أفضل الاستغفار برقم 5831 .

ﷺ ؛ وهذه المعاني ظاهرةٌ في أذكار الاستغفار ، كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : (قال الله تعالى : يا ابنَ آدم إنك ما دعوتني ورجوتني ؛ غفرتُ لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابنَ آدم لو بلغتْ ذنوبُك عنانَ السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابنَ آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرةً)[1].

5/ الاستغفار توحيد وتمجيد لرب العالمين سبحانه وتعالى :

لما كان الدعاءُ قائماً على توحيدِ الله عزَّ وجلَّ وإظهار الذُّل والافتقار إلى الله ؛ فقد نادى أيوب عليه السلام : (أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) ، وجمع في هذا الدعاءِ بين حقيقةِ التوحيدِ وإظهار الفَقر والفاقةِ إلى ربّه ووُجودِ طعمِ المحبةِ في التملُّق له ، والإقرار له بصفةِ الرحمةِ وأنه أرحَمُ الراحمين ، والتوسُّل إليه بصفاتِه سبحانه وشدةِ حاجتِه هو وفَقره . ومتى وجد المبتلى هذا كُشِفَت عنه بلواه ، وقد جرب أنه من قالها سبعَ مرات ولاسيما مع هذه المعرفة كشفَ الله ضُرَّه"[2].

ولله دَرُّ ابن القيم رحمه الله ؛ حيث قال : التوحِيدُ مَفزَعُ أعدائه وأوليائه ، فأما أعداؤه فيُنجِيهم من كُرَبِ الدنيا وشدائدها ، (فإذا ركبوا في الفُلك دعوا الله مُخلِصين له الدِّين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون). وأما أولياؤه فينجيهم من كُربات الدنيا والآخرة وشدائدها ؛ ولذلك فزعَ إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات ، وفزع إليه أتباعُ الرُّسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعدَّ لهم في الآخرة . ولما فزعَ إليه فرعون عند مُعاينة الهلاك وإدراك الغرق لم ينفعه ؛ لأنَّ الإيمان عند المعايَنة لا يقبل ، هذه سُنةُ الله في عِباده ؛ فما دُفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ؛ ولذلك كان دعاءُ الكربِ بالتوحيد ، ودعوةُ ذي النون التي ما دعا بها مَكرُوبٌ إلا فرَّجَ الله كربَه بالتوحيد ؛ فلا يُلقي في الكَرْبِ العِظام إلا الشِّرك ، ولا يُنْجِي منها إلا التوحيد ؛ فهو مَفزَعُ الخَلِيقة ومَلجؤها وحِصْنُها وغِياثها.)[3] .

([1]) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده

([2]) انظر : الفوائد لابن القيم ص 222-223.

([3]) الفوائد لابن القيم ص 61 .

6/ الاستغفار استحضارٌ لمعاني العبودية :

ولا ريبَ أنَّ المؤمنَ الذاكرَ المستغفرَ دائمُ الاستحضار لِمَعاني العُبوديةِ لله عَزَّ وجلَّ ؛ فهو يَستَغفِرُ اللهَ ويُنيب إليه ، ويتوبُ مِن ذُنوبه ؛ اقتداءً برسول الله ﷺ ، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : (والله إنِّي لأسْتغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه في اليومِ أكثرَ مِن سَبعين مرّةً)[1] .

وروى البخاري رحمه الله عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (ربِّ اغفرْ لي خطيئتي وجَهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفرْ لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي؛ وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر؛ وأنت على كل شيء قدير)[2]. وفي روايةٍ: (اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطاياي وعَمْدي وكل ذلك عندي).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله [3]: (استُشكِلَ دعاؤه ﷺ بما ذُكِرَ مع أنه مَعصومٌ مَغفورٌ له ما تقدَّم وما تأخَّرَ؟ وأُجِيبَ بأجوبةٍ ، أحدها: أنه قصدَ التعليمَ لأمته ، ثانيها : أنَّ المرادَ السؤالُ منه لأُمَّتِه ؛ فيكون المعنى هنا : أعوذ بك لأمتي، ثالثها: سُلوكُ طريق التواضُع وإظهارُ العُبوديةِ وإلزامُ خَوفِ اللهِ وإعظامِه والافتقار إليه وامتثال أمْره في الرغبةِ إليه ، ولا يمتنع تكرارُ الطلبِ مع تحقق الإجابة ؛ لأن ذلك يُحَصِّلُ الحسناتِ ويرفع الدرجات. وفِيهِ تَحْريضٌ

([1]) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة برقم 5832 .

([2]) صحيح البخاري كتاب الدعوات ، باب قول النبي ﷺ : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت. حديث رقم 5919.

([3]) هو أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن أحمد الكناني الشافعي المعروف بابن حجر العسقلاني . ولد بمصر في شعبان 773 هـ وتوفي في ذي الحجة 852 هـ حامل لوا ء السنة في زمنه ، وقاضي قضاة مصر ، صنف مصنفات عديدة نافعة خاصة في مجال السنة والحديث ، من أشهر تصانيفه ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ولسان الميزان ، والنكت على ابن صلاح... وغيرها .

لأمَّتِه على مُلازَمةِ ذلك ؛ لأنه إذا كان مَع تحقُّق المغفرةِ لا يترك التضرع ؛ فمَنْ لم يَتَحَقَّقْ ذلك أحْرَى بالملازَمة)[1].

7/ الاستغفار دليل على معرفة العبد لربه عزَّ وجلَّ وخَشْيَتِه له :

وقد عبَّر عن ذلك ابنُ مسعود رضي الله عنه خيرَ تعبيرٍ فيما رواه البخاري في (كتاب الإيمان) من قول ابن مسعودٍ: (إنَّ المؤمنَ يرى ذُنوبَه كأنه قاعِدٌ تحت جَبلٍ يخافُ أن يقعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يرى ذُنوبَه كذُبابٍ مَرَّ على أنْفِه فقال به هكذا)[2]. قال ابنُ أبي جَمْرة رحمه الله[3] : السببُ في ذلك أنَّ قلبَ المؤمن مُنَوَّرٌ ؛ فإذا رأى مِن نَفْسِه ما يخالِفُ ما يُنوَّر به قلبُه عَظُمَ الأمرُ عليه ! والحكمةُ في التمثيل بالجبل أنَّ غَيرَه مِن المهلِكات قد يحصلُ التسبُّبُ إلى النجاةِ منه عادةً ، بخلافِ الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادةً . وحاصلُه أنَّ المؤمنَ يغلبُ عليه الخوف ؛ لقوَّة ما عندَه من الإيمان ؛ فلا يأمنُ العُقوبة بسببها. وهذا شأنُ المسلم أنه دائم الخوفِ والمراقبةِ يستصغرُ عملَه الصالح، ويخشى مِن صَغير عَمَلِه السيّء"[4]. وقال المحب الطبري رحمه الله [5]: إنما كانت هذه صِفةُ المؤمن ؛ لِشدةِ خَوفِه مِن اللهِ ومِن عُقوبَتِه؛ لأنه على يقينٍ من الذنب , وليس على يَقينٍ من المغفرة, والفاجِرُ قليلُ المعرفةِ بالله ؛ فَلِذلك قَلَّ خَوفُه واستهانَ بالمعصِية)[6] .

ورَحِم الله القرطبي حيث قال في تفسير قول الله عز وجل :﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا

([1]) فتح الباري 319/2.

([2]) البخاري :كتاب الدعوات ، باب التوبة برقم 5833 .

(3) هو : عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الازدي الأندلسي ، أبو محمد : من العلماء بالحديث ، مالكي. أصله من الأندلس ووفاته بمصر. من كتبه : جمع النهاية اختصر به صحيح البخاري ، ويعرف بمختصر ابن أبي جمرة ، وبهجة النفوس في شرح جمع النهاية ، والمرائي الحسان في الحديث والرؤيا توفي سنة 695ه ، انظر ترجمته في الأعلام للزركلي 89/4 .

([4]) فتح الباري 105/11 .

(5) هو : أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري ، أبو العباس ، محب الدين حافظ فقيه شافعي ، متفنن ، من أهل مكة مولدا ووفاة . وكان شيخ الحرم فيها. له تصانيف منها : السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، والرياض النضرة في مناقب العشرة ، والقرى لقاصد أم القرى ، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى انظر ترجمته في الأعلام 158/1 .

([6]) فتح الباري 105/11 .

فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [1] "قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي: ليس أحدٌ يغفر المعصية ولا يزيل عُقُوبتَها إلا الله (وَلَمْ يُصِرُّوا) أي: ولم يثبتوا ويعزموا :﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ، وقال مجاهد أي : ولم يمضوا... الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه ، ومنه صَرُّ الدنانير : أي الربط عليها... قال سهل بن عبد الله : الإصرار هو التسويف ، والتسويف : أن يقول : أتوب غداً ، وهذا دعوى النفس كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه ، قال علماؤنا: الباعث على التوبة وحَلّ الإصرار إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفار وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغباً ورَهباً، والرغبة والرهبة ثمرةُ الخوفِ والرجاء ، يخاف من العقاب ويرجو الثواب والله الموفق للصواب. وقد قيل : إنَّ الباعثَ على ذلك تنبيهٌ إلهيٌّ يُنبّه به من أراد سعادتَه لِقُبح الذنوبِ وضَرَرها ؛ إذ هي سُمومٌ مُهلِكَةٌ . قلت : وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى فإنَّ الإنسانَ لا يتفكرُ في وَعدِ الله ووَعِيدِه إلا بتنبيهه ؛ فإذا نظر العبدُ بتوفيق الله تعالى إلى نفسِه ؛ فوجدها مشحونةً بذنوبٍ اكتسبَها وسيئاتٍ اقترفَها وانبعثَ منه الندمُ على ما فرطَ وترك مثل ما سبق مخافة عُقوبةِ الله تعالى صدقَ عليه أنه تائبٌ ؛ فإن لم يكن كذلك كان مُصِرا على المعصية ومُلازماً لأسبابِ الهَلَكة ، قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشغله الذنبُ عن الطعام والشراب كالثلاثة الذين خُلِّفوا).[2]

المبحث السادس
الاستعاذة ودلالاتها العقدية

ومما تضمنته هذه الخطبة المباركة الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى

([1]) سورة آل عمران الآية : 135 .
([2]) الجامع لأحكام القرآن 4/411-412.

وهو باب عظيم من أبواب التوحيد والاعتقاد ، وأما معنى الاستعاذة فيقول ابن القيم رحمه الله تعالى : اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها ؛ الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا كما يسمى ملجأ ووزرا ، وفي الحديث أن ابنة الجون لما دخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت : أعوذ بالله منك ، فقال لها : لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك) [1] . وقال في إغاثة اللهفان : ومعنى استعذ بالله : امتنع به ، واعتصم به وألجأ إليه ...) [2]. فالاستعاذة إذا معناها الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى والاحتماء بجنابه جل وعلا من كل ما يخاف منه الإنسان مما لا يستطيع دفعه عن نفسه ، والله سبحانه وتعالى وحده المستعاذ به ، ولا يستعاذ بأحد من خلقه بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره ، وقد أخبر تعالى عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال تعالى حكاية عن مؤمني الجن : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾[3].

وأما قوله عليه الصلاة والسلام في الخطبة (**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**) فللعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى كلام بديع في هذا الموضع أنقله بطوله قال : الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين : إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر من الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأدومها وأشدها اتصالا بصاحبه ، وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف ، أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، أو ليس نظيره وهو الجني ، وغير مكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها) [4] . وقال أيضا : فقوله ﷺ في تشهد الخطبة (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا) : يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة فيسال دفعه وأن لا يوجد ، وأما قوله

([1]) بدائع الفوائد 201/2 . وحديث ابنة الجون في سنن ابن ماجة ومسند الإمام أحمد بن حنبل وصححه الألباني رحمه الله تعالى .

([2]) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ص 99 .

([3]) سورة الجن الآية : 6 .

([4]) بدائع الفوائد 204/2 .

: (**من سيئات أعمالنا**) ففيه قولان : **أحدهما** : أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود فطلب دفع الأول ورفع الثاني .

والقول الثاني : أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها ، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضا ؛ دفع المسبب ، والأول دفع السبب ، فيكون استعاذ من حصول الألم وأسبابه ، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها ، وعلى الثاني يكون من باب إضافة السبب إلى مسببه ، والمعلول إلى علته ، كأنه قال : من عقوبة عملي ، والقولان محتملان ، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به فإن مع كل واحد منهما نوعا من الترجيح ، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس ، فشر النفس يولد الأعمال السيئة فاستعاذ من صفة النفس ، ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة ، وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم فمتى عوفي منهما عوفي ؛ من الشر بحذافيره ، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل ، وأسبابها شر النفس فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها ، والقولان في الحقيقة متلازمان والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر) [1].

وأما دلالة الاستعاذة على الاعتقاد فغاية في الوضوح ؛ إذ الاستعاذة عبادة من جملة العبادات ، شأنها شان الدعاء ، والاستغاثة ، والاستعانة ... فالمستعيذ بالله تعالى عابد له موحد له ، والمستعيذ بغيره عابد لغيره مشرك به سبحانه وتعالى ولهذا قال تعالى : (قل أعوذ برب الناس) . ولذلك تضافرت نصوص الكتاب والسنة على الأمر بالأستعاذة بالله وحده لا شريك له .

ونصوص الاستعاذة والتعوذ في السنة كثيرة جدا منها مثلا:

في الحديث سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَنْبَشٍ كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ قَالَ جَاءَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ مِنْ الأَوْدِيَةِ وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْجِبَال وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فَرُعِبَ قَالَ جَعْفَرٌ أَحْسَبُهُ قَالَ جَعَلَ يَتَأَخَّرُ قَالَ وَجَاءَ جِبْرِيلُ

([1]) بدائع الفوائد لابن القيم : 207 - 208 .

عَلَيْهِ السَّلاَم فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قُلْ قَالَ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ وَمِنْ شَرّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرّ كُلّ طَارِقٍ إِلاَ طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ وَهَزَمَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَل".[1]

وفى صحيح مسلم عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي العَاصِ الثَّقَفِيّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلاَثًا وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)[2].

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّال وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَفِتْنَةِ المَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنْ المَغْرَمِ فَقَالَ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ وَعَنْ الزُّهْرِيّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِيذُ فِي صَلاَتِهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال).[3]

وعن سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قال سَمِعْتُ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ[4] مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)[5].

المبحث السابع

([1]) رواه أحمد والطبرانى وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 840 .

([2]) رواه مسلم في كتاب السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء برقم 4082 .

([3]) رواه البخاري : كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام برقم 789 .

([4]) قال النووي رحمه الله تعالى : قوله ﷺ : (أعوذ بكلمات الله التامات) قيل : معناه الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب , وقيل : النافعة الشافية , وقيل : المراد بالكلمات هنا القرآن . والله أعلم .

([5]) رواه مسلم : كتاب الذكر والدعاء ، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره برقم 4881 .

طلب الهداية من الله

ومما تضمنته هذه الخطبة المباركة طلب الهداية من الله تعالى فقوله عليه الصلاة والسلام (ونستهديه) أي : ونطلب الهداية منه ؛ وذلك لأن جميع الخلق مفتقرون إلى هداية الله تعالى في أمور دينهم ودنياهم ، والله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فمن هداه الله تعالى للإيمان فبفضله وله الحمد ، كما قال تعالى: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) ، وقوله تعالى: (وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِين) ، ومن أضله فبعدله ، قال سبحانه : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَمٍ لِلعَبِيدِ) ، وقال عز وجل: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)، وقوله : (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ) ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى للهداية سبلاً وطرقاً فمن أخذ بأسبابها هداه الله ، ومن أخذ بأسباب الضلال أضله الله ، قال تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) ، وقال: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) .

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى : (الإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق ، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الهدى ، فصار مهتدياً بالفعل بعد أن كان مهتدياً بالقوة ، وإن خذله الله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته... والهداية نوعان هداية مجملة وهي الهداية للإسلام والإيمان وهي حاصلة للمؤمن وهداية مفصلة وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام وإعانته على فعل ذلك وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلا ونهارا ولهذا أمر الله عباده أن يقرأوا في كل ركعة من صلاتهم قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بالليل اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ")[1]

أنواع الهداية : والهداية نوعان :

الأولى : هداية إرشاد وبيان ؛ وهي التي يملكها الرسل وأتباعهم من الدعاة إلى الله تعالى والتي ذكرها الله تعالى بقوله : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الْهُدَى) ، وبقوله تعالى : {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء

([1]) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم 40/2 .

مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [1] . وهذه الهداية هي التي يتحدث عنها علماء الدعوة فيذكرون شروطها وأساليبها ووسائلها المختلفة ، فهي مرادفة للدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سبب للهداية الثانية .

والثانية : هداية توفيق ؛ وهي أن يوفق الإنسان لسلوك الصراط المستقيم ؛ وهي التي بيد الله تعالى وهي المقصودة في خطبة الحاجة (**من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له**) ، وهذه الهداية هي التي يتحدث عنها أهل العقيدة فيذكرون في كتب العقيدة : أن من جملة ما يعتقده أهل السنة والجماعة أن الهداية والضلال بيد الله سبحانه وتعالى ، خلافا لمن نفى ذلك من أهل البدع والضلال مثل المعتزلة قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية في شرح كلام الإمام الطحاوي : (**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً . وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلاً**) هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ فِعْلِ الأَصْلَحِ لِلْعَبْدِ عَلَى اللهِ ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْهُدَى وَالضَّلاَلِ . قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ : الْهُدَى مِنَ اللهِ : بَيَانُ طَرِيقِ الصَّوَابِ ، وَالإِضْلاَلُ : تَسْمِيَةُ الْعَبْدِ ضَالا ، أَوْ حُكْمُهُ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ بِالضَّلاَلِ عِنْدَ خَلْقِ الْعَبْدِ الضَّلاَلَ فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ : أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لَهُمْ . وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } وَلَوْ كَانَ الْهُدَى بَيَانُ الطَّرِيقِ - لَمَا صَحَّ هَذَا النَّفْيُ عَنْ نَبِيِّهِ ، لأَنَّهُ ﷺ بَيَّنَ الطَّرِيقَ لِمَنْ أَحَبَّ وَأَبْغَضَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شِئْنَا لآتينا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } { يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وَلَوْ كَانَ الْهُدَى مِنَ اللهِ الْبَيَانُ ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلّ نَفْسٍ لَمَا صَحَّ التَّقْييدُ بِالْمَشِيئَةِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } وَقَوْلُهُ { مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ })[2] ، فمعتقد أهل السنة والجماعة أن الهداية والضلال بيده سبحانه وتعالى ، فمن اهتدى فقد اهتدى بفضله ، ومن ضل فبعدله وأن الله تعالى خص المؤمنين والمهتدين بمزيد عناية وذلك فضله يؤتيه من يشاء تبارك ربنا وتعالى ، ولهذا يروى عن

([1]) سورة الشورى الآية : 52 .

([2]) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي تحقيق : أحمد شاكر ، الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد الطبعة : الأولى - 1418 هـ ، ص106 .

جعفر الصادق أن قدريا دخل عليه وقال له : يا ابن بنت رسول الله : تعالى الله عن الفحشاء ، فقال له جعفر الصادق : يا أعرابي وجل ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشاء ، فقال القدري : يا ابن بنت رسول الله أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : يا أعرابي أفيعصى ربنا قهرا ؟ قال : يا ابن بنت رسول الله أرأيت إن صدني الهدى ، فسلك بي طريق الردى أحسن بي أم أساء ؟ فقال رضي الله عنه : إن منعك شيئا هو لك فقد ظلم ، وأساء وإن منعك شيئا هو له ، فإنه يختص برحمته من يشاء فأفحم القدري وبهت ولم يجد جوابا)[1].

والهداية أكبر نعمة ينعم بها الله سبحانه وتعالى على العبد ، وبقدر هدايته تكون سعادته في الدنيا والآخرة ، والأنبياء عليهم السلام هم أكمل البشر هداية ، وكانوا يسألون الله سبحانه وتعالى الهداية ومن ذلك قول موسى عليه السلام : (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) ، والنبي ﷺ كان يكثر في دعائه من طلب الهداية من الله ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت : كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2] ، وما أخرجه أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى) [3]، وأمرنا الله سبحانه وتعالى بطلب الهداية منه في كل ركعة من صلاتنا فقال تعالى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ، قال ابن القيم : ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب علم الله عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم : توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديته وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما

(1) حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر ، لشيث بن إبراهيم بن حيدرة أبو الحسن 18/1 .

(2) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم 1289 .

(3) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم 4898 .

الدعاء ...وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين فالداعي به حقيق بالإجابة)[1] ، وهداية الله سبحانه وتعالى وسعت كل المخلوقات ، فقد هدى سبحانه وتعالى جميع الأحياء إلى جلب مصالحها ودفع مضارها ، قال تعالى: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)، وقال تعالى : (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) ، فهدى سبحانه كل مخلوق إلى ما لابد منه في قضاء حاجاته.

(1) مدارج السالكين (23/1 – 24) .

الخاتمة :

وفي الختام أحمد الله تعالى الذي وفقني لكتابة هذا البحث وقد توصلت فيه لجملة من النتائج المهمة :

1/ أهمية هذه الخطبة ومكانتها العظيمة عند الرسول ﷺ حتى أنه كان يعلمها صحابته الكرام كما يعلمهم السورة من القرآن .

2/ أن هذه الخطبة بما تضمنته من معاني عظيمة لها أثرها البالغ في الهداية بعد توفيق الله تعالى .

3/ تضمنت هذه الخطبة أهم أصول العقيدة الإسلامية : الشهادتين ، والحمد ، والاستعانة ، والاستغفار ، والاستعاذة ، وطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى ، وهذه من أعظم أبواب العقيدة وأهمها .

هذا وأسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه موافقاً لمرضاته نافعاً لعباده ، إنه جواد كريم ، كما نسأله أن يتجاوز عن تقصيرنا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أموت ويبقى ما كـتبته فيا ليت من يقرأ كتابي دعا ليا
لعل إلهي أن يمن بلطفه ويرحم تقصيري وسوء فعاليا